المستشرق برنارد لويس

الإسلام والغرب وصناعة الرؤية الغربية في النزعة العدوانية بالعقيدة

في عمق النفسية الغربية يسكن الرعب من الإسلام ومن تلك القوى التي سحبت في الماضي عرش النفوذ الغربي من الشرق

ما تصنعه مجريات الأحداث في التاريخ، وحين تكون المفاصل تقف عند التحكم في المصائر، تترسب في أعماق الذات كيانات عدوانية دائماً ما تدفع بنزعات الانتقام والتسلط إلى مواجهة من كسر منها هيبة النفوذ، وتعلى منزلة الرغبة الحاقدة إلى حد محو الآخر، حين يكون الدين وما أنزل منه في القداسة داخلاً في جوهر هذا الصراع.

الإسلام والمسيحية.. الشرق والغرب.. وبينهم سباق الحضارة والتاريخ.

نجمي عبدالمجيد

تساق في كتابات المستشرق برنارد لويس رؤية لهذه الاشكالية والأزمة في نوعية تحديد لون العلاقة بالرغم من اطروحات موضوعية قدمت منزلة الشرق كحضارة وما له من اسهامات في تطور الوعي الانساني لكنها لم تكسر حائط الفصل بين عدوانية الاسلام نحو الغرب والعكس.

في هذا تأسس عقيدة لا التقاء بينهما على منطق حوار الحضارات، بل تسلط وتسيد نزعة الغرب المسيحي على هذا الشرق الاسلامي.

حالات الحذر والخوف في الغرب من عودة الاسلام كقوة تفرض حضورها على العالم مثل الماضي مسألة لن يقبل بها الغرب فما زالت خيالات خيول وجيوش الفتوحات الاسلامية تحدث هزاتها في المخيلة الغربية.

فلم يكن ذلك الالتقاء إلا عبر كسر حواجز التاريخ في العقيدة المسيحية. هنا لا تصبح حالة النصر أو الهزيمة معادلة النصر العسكري بل لحد تقزيم العقيدة الدينية وهي ما رفعت عبر قرون باسم الحكم المطلق والحق المنزل من السماء التي اغلق بابها على آخر رسالة عند كل طرف في هذا النزاع في السيادة على الأرض. في هذا المحور الذي لا يدعي غير لغة العنف في ابقاء وجوده حيث لم تعد الأرض متسعاً للكل بل انفرادية لذاتية واحدة وهو ما يجبر كل طرف على التخندق والتمترس وجعل مشهد الحرب الصورة دائمة الحضور في هذا الصراع.

مما يذكره الدكتور برنارد لويس في هذا الطرح: (كانت الجغرافيا الاسلامية الباكرة تستخدم نظامين لتقسيم العالم أحدهما طبيعي والآخر يجمع بين الديني والسياسي، الطبيعي يقسم العالم إلى أقاليم - وهي كلمة ونظام مستمدة من اليونانية. هذا التقسيم جغرافي محض ولا علاقة له بالدين أو العرق أو الثقافة أو السياسة كما انه يظهر في الكتابات الجغرافية ولا يظهر غالباً في غيرها.

كان التقسيم الديني - السياسي الأكثر أهمية، هو السائد، وأحسبه مازال هكذا إلى الآن في بعض دوائر مناقشة المسلمين للعالم الذي يعيشون فيه ولعلاقاتهم بالآخرين.

التقسيم الرئيسي للعالم في التصور الاسلامي هو: دار الاسلام، ودار الحرب.

اما دار الاسلام فهي المناطق التي يحكم فيها الاسلام وتسودها شريعته، ودار الحرب هي المناطق الاخرى.

ليس كل من في دار الاسلام مسلماً بالطبع فالواقع ان هناك جماعات كبيرة ومهمة من غير المسلمين موجودة ومسموح لها بممارسة عقائدها وتدير شؤونها في حدود ولكن هذا التسامح مشروط أساساً بقبولهم بسيادة الاسلام وأولية المسلمين.

خارج حدود السلطة الاسلامية توجد دار الحرب وهي أراض لا يسكنها غير المسلمين فحسب ولكنها كذلك محكومة بغير مسلمين ومن واجب المسلمين الديني والاخلاقي ان يبلغوا وحي الله الأخير لكل البشرية، سلماً ان امكن وحرباً عند الضرورة، وهذا أحد الالتزامات الأساسية في عقيدة المسلم. هذا الواجب يطلق عليه الجهاد وهي كلمة تعني حرفياً الكفاح والنضال وتترجم عادة بالحرب المقدسة).

ليست الجغرافيا في هذا الجانب رسماً لحدود المناطق، بل فرضت عليها جغرافية العقيدة - المقدس. ومن منطلق الفكر الاستشراقي يرى الكاتب ان الاسلام هو من أسس للعدوانية في تحديد المواقف.

كل ما هو خارج المحيط الاسلامي هو دار كفر ويجب اعلان الجهاد ضده.

من هذا المنطلق يأتي الحق العربي - المسيحي في جعل دار الاسلام مصدر الشر والعداء، وادخاله في دائرة الاستهداف الحربي عبر الحقب، ثم يأتي هذا الغرب نحو الشرق وفي ذاتيته عقدة وعقيدة قهر الاسلام وجعله في موضع الضعف الدائم، وهذا لا يكون إلا عبر كسر نفسية المسلم وادخاله في مربع الكائن المقهور غير القادر، بل افراغ جوهر المقدس لديه من قوة الايمان في النصر.

في عمق النفسية الغربية يسكن الرعب من الاسلام، ومن تلك القوى التي سحبت في الماضي عرش النفوذ الغربي من الشرق.

هذا الحاجز ليس من السهل القفز عليه بل صنع الغرب منذ وصوله إلى الشرق مستعمراً الكثير من خطوط التقاطع، بل صاغ في سرديات التاريخ لديه بأن هذا المكان لن يخرج من تراكم المقدس لديه إلا عبر سلخ المشرق عن العقيدة الدينية، بل اسقاط هوية الغرب رافعة راية العلم والحضارة ضد جهل العقل المسلم الغارق في الخرافات والأساطير، وساعد في هذا حقب من التاريخ فقد فيها المسلم قوة حضوره في العالم وتساكن مع مناطق مظلمة لم تعد بقادرة على أن تطرح من صفاتها غير اجترار الماضي.

لم تعد الجغرافيا التي تصاغ في الفكر الغربي في الراهن تمكن الهوية الاسلامية من رفع قوة المواجهة مع الغرب ليصبح طريقاً للفتح، بل يأتي منه الفناء المطلق.

في طرح آخر يقول: (لمدة تربو على ألف سنة كانت أوروبا أو المسيحية ان شئنا الدقة تحت تهديد دائم من هجوم وغزو اسلامي متوقع، فإذا كان المسلمون يتم صدهم في منطقة ما كانوا يعودون للظهور بقوة أعظم في منطقة اخرى. حتى في ايسلندا البعيدة كان المسيحيون مازالوا يدعون في صلواتهم ان يحفظهم الرب من شر الاتراك، ولم تكن تلك المخاوف دون أساس ففي سنة 1627م اغارت جماعة من القراصنة من شمال افريقيا على سواحلهم وحملت اربعمائة أسير لبيعهم في سوق العبيد في الجزائر).

يظل المسلم في قعر الذات الغربية مجرماً تاريخياً بحق الغرب. فلاسلام معه إلا عبر القوة القهرية بل طرحه في منغلق لا ينظر إليه إلا من زاوية واحدة، صانع العدوان.

الرؤية الاستشراقية في الغرب صنعت دوائر محددة للإسلام يجب أن يظل فيها ولا يتجاوزها

وتظل صور هذا المأزق في العلاقة تتساقط على نفسية الحقب عند كل طرف. ومهما علت أصوات تسعى لتطهير هذه الشوائب من الخواص الجماعية أو الفردية تضرب موجات من الاعتداء قادمة من الغرب. مازالت أوجاع السابق الاسلامي تتوسع دوائرها بينما يحاول الشرق أن يستدعي من الماضي صور الجهاد ضد المسيحية القاهرة، بل هي دار الكفر وتعود ثنائية الصدام إلى ذات الأهواء وربما قد تذهب نحو حقول من الانفجارات المدمرة، وهو ما نراه اليوم بعودة القوة الغربية القاهرة نحو العالم الاسلامي مع مشاريع التقسيم وإعادة رسم مسافات النظرة بين الأحداث. لقد صنعت الرؤية الاستشراقية في الغرب دوائر محددة للإسلام يجب أن يظل فيها ولا يتجاوزها.

جانب آخر من هذا الفكر الذي ما زال يجول في صراع المنطقة، يذكر برنارد لويس :(بالنسبة لعالم الإسلام، كان سكان الشرق والجنوب برابرة، يمكن تعليمهم في الوقت المناسب، وتحويلهم إلى الإسلام، وتجنيدهم لخدمة الدولة والعقيدة الإسلامية، وكانت تلك في الواقع التجربة التاريخية للإسلام في آسيا وأفريقيا.

الوضع على الجبهة الشمالية الغربية للعالم الإسلامي، في المناطق المعروفة لبعض سكانه كان مختلفاً تماماً. إلى الشمال مباشرة كان هناك شعب تسميه الدراسات الحديثة: البيزنطيون، ولكنهم كانوا يعرفون أنفسهم بالرومان ويعرفهم جيرانهم المسلمون بالروم. في تلك الإمبراطورية القديمة التي حكمتها سلسلة من القياصرة وكانت تعتنق المسيحية، عرف المسلمون دولة وعقيدة ورسالة ونظاماً دينياً تدافع عنه قوة منافسة، تنازعهم امتلاك حقيقة كلمة الله النهائية ورسالتها التي ينبغي أن توصلها إلى العالم بأسره).

تلك هي نقطة الصراع في عمق النفسية الدينية ـ العقائدية، الحفاظ المطلق على الحق الإلهي. ليس الجانب هنا يكمن في رسالة السماء، بل في الهيمنة الاقتصادية والجغرافية وحتى الامتداد العسكري.

ما بين الماضي واليوم لن تزال ما ترسب في وعي الذاكرة والتاريخ من حروب، ما زال بيرق السيوف يتجاور فيها مه نيران القنابل.

إن الغرب في هذه الصورة لن يدفن السابق، بل هو الهدى له في مسار المعركة، كذلك الإسلام ما زال يسعى لأخذ بعض مما فقد من ذلك التاريخ الذي يجد فيه المسلم اليوم العزاء بعد كل هذا الخذلان والضياع.

هذا ما يوجد على أرض الواقع، غرب هو صناع القرار، وواقع إسلامي عاجز عن الخروج من هذا النفق المظلم.

لقد تم وضع الشرق من قبل الغرب في شرنقة الاستباحة، ومنذ قرون تعالت أصوات الاستشراق في صناعة معالم أقل ما توصف بأنها عقائدية في إدارة صراعها مع العالم الإسلامي، وهذا ما صنع الفالق الإنساني بين العقل الغربي والعقل العربي.

يرى الكاتب أن التاريخ الإسلامي قد صور انتصار شارل مارتيل على العرب في إحدى المعارك سنة 732 باعتباره نقطة تحول في المواجهات بين المسيحية والإسلام، تلك المعركة التي صدت الزحف الإسلامي وضمنت بقاء أوروبا في أحضان عقيدتها، حيث نجد التدوين الإسلامي لها لم يأخذ سوى جزء من الهامش.

أما بالنسبة للغرب المسيحي فكانت هذه المعركة الفرض الحاسم بين الشرق والغرب، في انتصار عقيدة وتراجع أخرى ربما يكون هذا من أشكال ردة الفعل عند الطرف المنتصر نحو الآخر المتراجع، هنا يصبح مفصل التاريخ هو من ينصب للحقائق وجهات نظرها في إعادة المواقف من الأحداث، لأن فعل الانتصار عند مستويات إدارة حلقات التاريخ تشكل قيام قوى تدرك أن القادم يجب أن يكون هو لها.

الكاتب يطرح علينا أن الجمع بين الإسلام والغرب لن يخلو من عقيدة التطرف عند كل طرف

تلك المرجعيات ظلت من ركائز الرؤية في الغرب ومازالت حتى الراهن تعزز بمزيد من تراكم عناصر الصراع

تلك حالة لا تكون إلا عبر إفراغ الطرف الآخر من إمكانيات المواجهة، ذلك لن يصبح عنصراً فاعلاً إلا عبر مدارات من الأزمنة، انسحبت من الشرق كل ركائز القوة وأصبحت في صفحات ذكريات الماضي غير أن الغرب ما زال يعاني من عقدة نفسية نحو الإسلام بمقدرة العودة إلى خطوط الصدام والتحدي.

وحول نقطة أخرى من هذا الصراع التاريخي يقول برنارد لويس:(كانت أوروبا تمثل تحدياً مزدوجاً بالنسبة لمسلمي العصور الوسطى، فمن ناحية كان هناك الخصم المسيحي الإمبراطوري المنافس الذي ينبغي مواجهته والتغلب عليه، ومن الناحية الأخرى كانت هناك الرسالة، التي كان يشعر بها بناة الإمبراطورية قبلهم وبعدهم، لكي يقوموا بغزو وتحويل وتحضير الشعوب البربرية فيما وراء الحدود الإمبراطورية).

هذا الشعور في حتمية التنافس لم يغادر الذاتية الجامحة نحو الترصد، بل ما زالت تترحل عبر مسارات التاريخ وما زال الشرق منزل الأديان السماوية، والجغرافيا والثروة، الشيء الفاضل غير القابل للخروج من معركة قدرية هذا الصراع بين الإسلام والمسيحية، الغرب وكما يرى في موقفه القدري في قيادة العالم إلى مدارج التحضر. والشرق وكما ينظر إليه الغارق في اوهام الحقيقة المطلقة بالمقدس لديه الذي تغلف بما تحمله تراكمات الأحداث والاجتهاد للعقل الإنساني.

هنا نجد عقدة نفي المغاير رسخت أصولها في عمق ذاتية كل دين.

السيادة مبدأ انفرادي ولا يقوم على احتساب الآخر في إطار المجاور له.

هذا يكسب كل عقدة أو مذهب اوهام المطلق الخالد في البقاء الافتراضي عند نفس المساحة الجغرافية أو الروحية، هنا تصبح قضية التراجع أو ترك التسيد للغير، حالة مراجعة والتربص للعودة لتصدر المشهد، وهذا لا يكون إلا عبر الحروب.

لا يمكن في خضم هذا الصراع المتصاعد في الشرق إغفال كل هذا التاريخ من تراكم التنافس حول السطوة الجغرافية والدينية.

وحين نعود لقراءة أفكار برنارد لويس وهو من عقول الاستشراق الغربي، بل مشارك في صناعة القرار السياسي في دوائر الغرب نحو الشرق، تكون الرؤية ليست مصادرة في إبعاد ذلك الماضي بل تسحب من هذا الرصيد كل ما يعزز حتمية الدفاع والهجوم.

ولعل ما تكون من بناء فكري في العقلية الغربية حول عدم الالتقاء بين الشرق والغرب على أرضية مشتركة، المسافة هنا لا تقاس بنوعية اللغة الحضارية التي قد تذهب نحو إعادة صياغة العلاقة التي تخرج معالمها المراحل المتجددة.

لكن الحصرية التي يرى فيها الغرب طوق النجاة من قوة إسلامية قادمة تعصف به، ويرجع لزمن التابعية للشرق، يصعد الإحساس بأن الدين الإسلامي ما زال يمتلك المقدرة الروحية والتاريخية على المواجهة مع الغرب.

هنا عززت نظريات الصراعات المذهبية والطائفية والحروب الأهلية والعجز الاقتصادي وكل ما يجعل من أرضية الشرق نيراناً دائمة الاحتراق، بل ضرب الإسلام بالإسلام عبر جعل ثقافة الإرهاب والتطرف جزءاً من أصول العقيدة والبحث في صفحات التاريخ عن مرجعيات الفتن والصراعات والانحراف في التفكير، ويرفع في حسابات الوعي الإسلامي على أن هذا هو ما صدق فيه الحق.